الاشتغال الحجاجي في كتاب الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة للإمام شهاب الدين القراقي - ت684هـ -

وفـــاء دبيـــش و شريف بوشحـــدان
قسم اللـــغة العربية وآدابهـــا
جامعة باجي مختـــار - عنابة

الملخّص:

تزخر مدونتنا التراثية بمصنفات متميزة، تجاوزت الجانب الشرعي، إلى الجانب اللغوي الحجاجي، من خلال طرق تعاطي بعض القضايا التي تعرض مضامين دينية ، جسدتها المناظرة التي يتجلى فيها الحجاج، داخل سياقات متعددة، منها الحوار والسؤال، وسنحاول في هذا المقال إماطة اللثام عن بعض آليات الإقناع في كتاب الأجوبة الفاخرة علي الأسئلة الفاجرة للإمام القرافي، مع ذكر شواهد مختلفة رسخت فعل التواصل من خلال الحجاج.

الكلمات المفتاحية: الحجاج ــ الإقناع ــ المناظرة ــ الحوار ــ السؤال.

Résumé :

Notre corpus patrimonial contient des œuvres qui dépassaient leur dimension religieux aux dimensions linguistiques et persuasifs et ca se manifeste dans leurs méthodes de traiter les problématiques religieuses comme le débat dans lequel en trouve l'argumentation dans différents contextes comme le dialogue et la question.

Cette étude tente de détecter les mécanismes de la persuasion dans le corpus alajwiba alfakhira ala alasila alfadjira quarrafi en citant plusieurs exemples qui ancrent l'acte communicatif à travers l'argumentation.

Mots clés: L'argumentation, la persuasion, le débat, le dialogue, la question.

Abstract:

Our patrimonial corpus contains many masterpieces exceeded their religious dimensions to linguistic and persuasive dimensions that appears in the methods used in treating religious problematics in those books like the debate where we find the argumentation in different contexts like the dialogue the question

This study attempts to detect the mecanisms of persuasion in this corpus alajwiba alfakhira ala alasila alfadjira quarrafi by extracting many exemples which anchor communicative act through the argumentation.

Keywords: Argumentation, Persuasion, Debate, The dialogue, The question.

توطئة:

لم تكن بلاغة الإقناع حكرا على المدونة البلاغية الغربية فقط، بل شهدت حضورا مكثفا في التراث العربي الإسلامي تمثل في الخطابة بشكل عام والمناظرة بشكل خاص، بفعل عوامل دينية و سياسية و ثقافية و حضارية... وهي عوامل ساعدت على تطور هذا الخطاب وشجعت على تناميه، وذلك ما ولد المناظرة بوصفها جنسا مستوي المعالم، كما انبعث منهجها في صلب خطابات الثقافة العربية الإسلامية، على اختلاف ميادينها واهتماماتها، وذلك ما أهلها لتكون وسيلة للمفاعلة العقلية، وعاملا منتجا للقيم و الأفكار، ولذلك اهتم القدماء بها، وأحاطوها بشروط جعلتها ممارسة منتجة، كما قيدت الطرفين المشاركين فيها وحددت لهما شروطا وواجبات، وأقرت طقوسا مساعدة لها على أداء دورها المعرفي، واختصت بمجالس معينة حفظت لها هيبة العلم وفائدته.

إن اعتمادنا على المناظرة كمجال تطبيقي للآليات الإقناعية، تحكمت فيه اعتبارات عديدة منها، النظرة الشمولية لها بوصفها جنسا حجاجيا, فالارتباط بين المناظرة والإقناع وثيق على حد قول" ***بول ريكور***"paul ricoeur: "المخاطبون المفضلون لفن البلاغة هم مستمعون مخصوصون, يجمع بينهم التنافس بين خطابات متعارضة ينبغي الاختيار فيما بينها, ويتعلق الأمر في كل حالة بترجيح كفة حكم ما على حكم آخر, وفي كل وضعية من الأوضاع المذكورة, ثمة مناظرة تستدعي الحسم في قرارها"[1].

كما أنها استنبطت الكثير من آلياتها الإقناعية من التراث الزاخر بسمات المحاججة الفكرية والمذهبية, التي أغنتها بفعل الانفتاح، والتفاعل بين الأجناس التي انضوت آنذاك.

كل هذه العوامل ساهمت في أن تشغل المناظرة حيزا مركزيا, متجددا بحسب التحولات السياسية والانشغالات الفكرية , والأذواق الأدبية واللغوية, وللوقوف على أبرز الآليات الإقناعية المؤطرة لهذا الجنس الأدبي التراثي, سنخصص الشق الأول من هذا المقال للكشف عن البناء الحواري لعينة من مناظرات *القرافي*, وسيرصد الشق الثاني دور الاستفهام في مناظراته وحجاجيتها.

1- الحوار:

غالبا ما توصف المناظرات على أنها تفاعلات كلامية, تتحرك على أرضية حوارية, وإذا كان الحوار في معناه العادي "هو كل خطاب يتوخى تجاوب متلق معين, ويأخذ رده بعين الاعتبار، من أجل تكوين موقف في نقطة غير معينة سلفا بين المتحاورين قريبة من هذا الطرف أو ذاك, أو في منتصف الطريق بينهما, صورته المثلى مناقشة بين طرفين أو أكثر"[2]. فحوار المناظرة ليس حوارا عاديا, وإنما هو حوار من نوع خاص بالنظر إلى السياق الذي يجري فيه, وقصدية الأهداف المرجوة منه.

إن الاعتماد المكثف على السؤال والجواب هو ما يعكس طابع الحوار في المناظرة, ويؤكد حدة النقاش وحضور الذوات المتفاعلة, لأن الاتصال الحي مع الآخر يتم عبر السؤال .

وتعبر ردود الآخر وتعقيباته عن اختراقه، وبالتالي ينتج ما يسمى بالمبادرة في الحوار. هكذا ورد في مناظرة القرافي:" قالت اليهود والنصارى: مما

يستدرك على المسلمين ما في كتابهم من جعل مريم رضي الله عنها أخت هارون عليه السلام صلوات الله عليه، وبينهما ستمائة سنة فلا تكون أخته، فكيف يخبر كتابهم بأنها أخته ؟

والجواب أنها من ذرية موسى عليه السلام، وهو أخو هارون, فقيل لها أخت هارون..."[3].

ثم إن تدبير الحوار في المناظرة يتم عبر انتظام التناوب بين المتدخلين، وما يعكس هذا التناوب, التوظيف المستمر لمادة قال، التي تفصل مرارا مداخلة كل طرف في حواره، فخطاب المناظرة يخضع لمبدأ النشاط الحواري الذي يتوزع إلى لحظتين تلفظيتين، تجسدان خاصية أدوار الكلام التي تبرز مدى انتباه المتدخلين, ووعيهما بما يجري، فمشاركتهما ومفاوضاتهما حول القضايا العالقة ما هي إلا استدلال يتوخى الإقناع.[4]

وتدل كثافة التناوب الكلامي بين المتناظرين على تواتر عال، يوحي إلى حرارة المواجهة بينهما، ولا غرابة في ذلك خاصة وهي مشحونة بالاختلاف والاستدلال, فقد وصل التناوب في كتاب القرافي إلى أكثر من مئة دورا, كما عالج القرافي الأسئلة من جوانب عدة وأجاب عنها من وجوه مختلفة وصلت حتى السبع وجوه لسؤال واحد, وهذا ما يدل على براعته وإحاطته بعلوم دينه.

إن تدبير الحوار في مناظرات القرافي مع اليهود والنصارى، يتم عبر تناوبه معهم على أدوار الكلام, ومؤشر هذا التناوب هو التوظيف المستمر لمادة "**قال**" باعتبارها الخط الفاصل لمداخلة كل طرف. "قال متى: لما حمل يسوع إلى بيلاطس القائد قال: أي شر عمل هذا؟ فصرخ اليهود، وقالوا: يصلب, فأخذ القائد ماء، وغسل يده، وقال:أنا بريء من دم هذا الصديق وأنتم أبصره, وكذبه يوحنا فقال: بل ضرب يسوع ثم سلمه إليهم، وهو تناقض صريح!!"[5]

تجسد أدوار الكلام الصفة الحجاجية للمناظرة، وتعمل على تحديد الاختلاف الذي يظهره الطابع الإشكالي للقضايا المطروحة, إذ يسعى كل مشارك إلى تعزيز موقفه حجاجيا من خلال ثنائية الإرسال، والاستقبال المفرزة للآراء.

إن مناظرات القرافي كغيرها من المناظرات, تحركها إرادة الإقناع، وغايتها الوصول إلى الإفحام, وهذا ما يحدث خرقا حواريا داخل النصوص، يتجلى في صور عدة منها, اللجوء إلى قطع كلام الآخر من خلال إرباك المحاور وإحباطه بإيراد حجج دامغة متتالية تحول دون تمكنه من تنظيم مداخلاته وهذا ما تعكسه بعض مناظرات القرافي, من تهديد مجال النصارى، وزرع الشك في معتقداتهم الدالة على أبوية المسيح عليه السلام, فيقابله القرافي بعشر حجج دامغة تنفي صحة هذه المسألة, نذكر منها: " قال متى مر يسوع عليه السلام بشجرة، وقد جاع, فقصدها ولم يجد فيها سوى الورق, فقال: لا يخرج منك ثمرة إلى الأبد, فيبست الشجرة لوقتها ... وذلك يدل من وجوه:

أحدها: جوعه وهو ينافي الربوبية, ويثبت العبودية".

ثانيها: عدم علمه بعدم ثمرة الشجرة, والله تعالى بكل شيء عليم, فدل على أنه بشر لا يعلم إلا ما علم, وذلك يثبت عبوديته, وينافي إلهيته.

وثالثها: غضبه على الشجرة؛ لأنه لما انخرم عليه أمله قوي غضبه، وهذه خاصية البشرية، ومنافية للربوبية...."[6]

يتابع القرافي حججه قاطعا عن المحاور أية إمكانية للإجابة، مانعا تدخلاته مشوشا عليه، مربكا بناء اتجاهه الحجاجي, وقد يعتبر هذا التوالي في إيراد الحجج دون منح فرصة للطرف الآخر بالمشاركة في الحوار تعسفا في حقه, إذ سرعان ما يصدر تدخلات غير مؤسسة ومقتضبة وضعيفة إقناعيا, غالبا ما تؤثر عليه نفسيا، وتفقده الثقة في آراءه، وتحبط عزيمته في الاسترسال.

إن هذا الشكل من أشكال خرق توزيع أدوار الكلام، يشكل ترجيحا لكفة أحد المتحاورين، وهذا ما يعرف بالاستبداد بالكلام, وبهذه الشاكلة يمضي القرافي في كتابه إذ ألفيناه يحظى بحيازة كلامية، هي الأطول، والأكثر تفصيلا من غيره,على الرغم من أنه كان يناظر طوائف دينية عديدة, ولكل منها حجج وأساليب مختلفة، ومغايرة. و"هذه الأطراف التي استبدت بالكلام في بداية المناظرة أي فتحته, هي التي استبدت كذلك بإغلاقه"[7].

وغالبا ما تتوج هذه الأطراف بالنصر ونقول لهم: الله تعالى يجوز أن يصلب ويقهر؟ فإن "قالوا: لا. بطل قولهم في المسيح, إذ يقرءون في صلاة الساعة السادسة: من سمرت يداه على الصليب, وبقي حتى لصق دمه عليه, قد أحببنا الموت لموتك يا الله ... وإن جوزوا على الله ذلك كذبتهم التوراة والإنجيل والمزامير..."[8]

فالقرافي هو الذي فتح المناظرة، وليس النصارى، واستطاع من خلال ذلك التحكم في مجرياتها، ونتيجتها، وتمكن من إفحام خصمه, وهذا ما أشار إليه "**جاك موشلر**" jacques moeschler حين اعتبر أن أي تفاعل حواري يعكس ديمومة التأرجح بين رغبتين متناقضتين هما: الإغلاق والمواصلة[9], وقد تمنح المتواليات الحوارية مجالا للتوسع، أو مجالا للإغلاق.

إن اختلاف المواقف بين المتدخلين يخلق تناقضا حول القضية موضع التداول, فيسعى كل من المعارض،أو المعترض إلى فرض رأيه عبر المسافة الحوارية المتاحة, فتوسع الحوار في المناظرة مرهون بمدى عمق الإطار الخلافي بين المتناظرين.

ونمثل لذلك بمناظرة القرافي مع النصارى الذين يزعمون أن" المسلمين على ضلال في دينهم بنص نبيهم وهم لا يشعرون، ذلك أن في الأحاديث الصحيحة باتفاقهم، أن نبيهم قال لهم عند موته: هلموا أكتب لكم كتابا لن

تضلوا بعده أبدا, فمنعهم عمر من ذلك، وقال :حسبنا كتاب ربنا, وإذا قال النبي الصادق, إن الكتاب الذي يكتبه سبب عدم الضلال، وما كتبه سيكون عدم الضلال لم يوجد، فينتفي مسببه، وهو عدم الضلال، فيكون الواقع هو ضلالهم جزما بشهادة نبيهم التي لا يمكن ردها"[10].

وبقدر ما يصر النصارى عليه من أن الإسلام دين ضلال, يصر القرافي على نفي ذلك، واحتج بأدلة لغوية عاد فيها إلى لسان العرب, وأزاح الغموض عن معاني لم يتسن للنصارى استيعابها.

فالجهد الإقناعي للنصارى يتركز على إيراد حجج مستنبطة من الأحاديث الصحيحة للبخاري ومسلم , كما استعانوا ببعض مبادئ الدلالة والتفسير، أما القرافي فنجده يحشد في انتقاده لدعاوى النصارى حججا قرآنية موظفا معرفته بالنحو والدلالة, وهذا التناقض هو الذي ساهم في توسيع الحوار في المناظرة.

ويشير "د طه عبد الرحمن" إلى ذلك فيقول: إن تعاقب عملية المنع والدفع يؤدي إلى إنشاء متوالية متشعبة تتركب من مناظرات فرعية, كل مناظرة فيها تتولد عن تعرض دعوى ما للمنع[11].

والملاحظ أيضا في هذا النوع من المناظرات حدة في التناقض، وشحنة شراسة عالية ناتجة عن ما عبر عنه "طه عبد الرحمن" بالمناظرات الفرعية – الصغرى– المنطوية داخل أغلب المناظرات, فهي التي تسعى إلى استمرار التناقض فيها, وبالتالي تطول وتتناسل, ولا تستكين ولا تقبل بأي هدوء ولو مؤقت, ويتجلى ذلك في مناظرة القرافي مع اليهود "حينما أظهروا تعجبهم من المسلمين حين يدعون أن التوراة فيها تبديل وتغيير, وأنها ليست على وضعها المنزل من عند الله تعالى و مع أنها منتشرة في المشرق والمغرب، وسائر أقطار الأرض...[12]

فجاء جواب القرافي واسعا إذ عالج القضية من وجوه مختلفة تعدت الخمسة عشر وجها، ضمنه مناظرات فرعية تبطل صدق دعوى اليهود منها: "قضية الجمع بين الأختين المحرمة بنص التوراة, والواقعة فعليا من قبل إسرائيل الذي جمع بيت أختين في عصمته، وهما **ليا وراحيل** ابنتا **لابان** , وكذلك قضية إطعام الملائكة, إذ ورد في التوراة أن إبراهيم عليه السلام أطعم الملائكة خبزا,... وسقاهم لبنا وسمنا, وأن لوطا عليه السلام أطعمهم فطيرا, مع أن أهل الكتاب ينكرون قول المسلمين بالنعيم الجسماني، ويقولون: لا طعام في الجنة، ولا شراب، ولا نكاح, بل حال أهل الجنة كحال الملائكة, لا يأكلون، ولا يشربون، وهذه غفلة عظيمة"[13].

فالجمع بين الأختين وإطعام الملائكة، وقضايا أخرى ماهي إلا مناظرات فرعية تضمنتها المناظرة الأصلية، التي تدور حول إبطال دعوى اليهود في اعتقادها بصحة دينها, والواضح أن السبيل الأوحد إلى إنهاء المناظرة مرهون بتوقف الخلاف؛ لأن استمراره يبقي على الحوار والمناقشة.

ومعلوم أن استمرار العناد قد يدفع المناظرة إلى طريق مسدود عقيم لا تطور فيه, ولكي تكون المناظرة منتجة لا بد لها من نهاية, وتتوقف هذه الأخيرة على إيجاد نوع من الاتفاق بين المتناظرين.

والواضح أيضا أن هدف المناظرة هو إفحام الخصم بالحجة الدامغة, وهذا أشبه بلعبة الشطرنج التي تتطلب معرفة دقيقة بأصولها وقواعدها, كذلك هو الشأن بالنسبة للمناظر لابد أن يحيط بكل نقاط القوة والضعف في موضوعه, ويركز أكثر على نقاط الضعف حتى لا يطيل الكلام ويعيده, بل يجدر به أن لا يفرط في الإطالة؛ لأن في ذلك إيهام للخصم بالتخوف الذي يستدعي كل هذا الكلام.

وهكذا فإن مناظرة القرافي مع النصارى انتهت بإفحام المدعي, إذ هدم دعواهم حول الشك في عدل الله سبحانه وتعالى حين طالبهم باتباع رسول لم يرسل إليهم، ولم يقفوا على كتابه بلسانهم, فكان جواب القرافي القاطع الذي أفحمهم أن رسول الله الكريم كتب إلى القيصر هرقل ملك الروم,وإلى المقوقس أمير القبط يدعوهم إلى الاسلام[14]

وهذا ما يعبر عن أن إغلاق المناظرة جاء بواسطة تعبيرات ذات حمولة حجاجية/إقناعية استعان بها القرافي، حين جعل آخر كلامه الضربة القاضية، حيث أورد حجة قوية، لم يتبعها بكلام ضعيف، حتى لا يمكن خصمه من المراوغة.

وعموما فإن المناظرة هي تفاعل حواري، وسبيل من سبل بناء الحقيقة لاعتمادها على مبدأ التشارك و التعاون من جانبين، فيها تتوسع مدارك العقل وآفاقه, كما أنها مدعاة إلى الحرص على ظهور الحق في صورة متعددة الشيء الذي يقتضي الشروع في حوار مع الآخر من أجل تكثير الحقائق، والكشف عن المنزلقات، والآفات.

2- بنية السؤال:

ليس غريبا أن يحظى السؤال بأهمية بالغة في المناظرة, باعتباره الآلية المستخدمة بكثرة في أية مواجهة, كيف لا وهو الأداة الكفيلة بمحاكاة اعتقادات الآخر, واستجواب مكنوناته، فهو محور النقاش، ولب أية عملية حجاجية.

ولا يمكننا الجزم بأن جل مناظرات القرافي استهلت بالسؤال, بل يحق لنا اعتباره الركيزة المدشنة للمناظرة, والمحرك الناشط لمجرياتها, فجواب

القرافي على مدح النصارى لأنفسهم حين يقدمون المائدة قربانا في كل قداس, دشن بهذا السؤال, وأين المائدة من القربان.[15]

وفي مناظرة أخرى له مع اليهود طائفة من اليهود يقال لها السامرية, اتفق اليهود على أنهم حرفوا التوراة تحريفا شديدا, والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك التحريف, فيستهل القرافي جوابه بسؤال: فإين حينئذ في التوراة شيء يوثق به مع تقابل هذه الدعاوي من فرق اليهود؟..."[16]

إن هذا الطقس الافتتاحي في المناظرات ينم عن أبعاد عديدة يهيئ من خلالها المحاور استدراج الآخر وإقحامه في المواجهة.

فالوقوف على هذه الأسئلة الافتتاحية يقودنا إلى الكشف عن مقصديتها, وإدراك أن الهدف من ورائها لم يكن أبدا الاستخبار أو الاستعلام؛ لأن القرافي هنا يدرك تماما جواب مناظره، لذا يتبين لنا أن هذه الأسئلة تقريرية على حد قول ابن وهب "أن يكون سؤالا عما تعلمه ليقر لك به... "[17].

ولعل القرافي اعتمد هذه الآلية حتى يتسنى له أن يناظر على أرضية واضحة من البداية, كما يمكنه ذلك من تأكيد اعتقاد خصمه، حتى لا يستطيع التنصل منه لاحقا.

إن اعتماد المناظرة من البداية إلى النهاية على السؤال، فيه تذكير بمحاورة سقراط على حد رأي **حسين الصديق** " الذي يتبنى موقفا لا يعطي فيه رأيه ويكتفي بطرح سلسلة من الأسئلة تهدف بشكلها البسيط إلى الاستعلام, ولكنها في مجموعها عند النهاية تؤدي إلى ايقاع الخصم في التناقض.."[18]

هذا الأسلوب في افتكاك الحق من الخصم عن طريق الأسئلة يظهر في مناظرات القرافي مع اليهود والنصارى، إذ خصص بابا كاملا عنونه ب: "في أسئلة على الفريقين معارضة لأسئلتهم ودامغة لكلمتهم" تضمن مائة وسبعة سؤالا يرمي من خلالها إلى تفتيت منهج التفكير لدى الخصم عن

طريق دحض حججه, فيبدأ القرافي المناظرة بسؤال النصارى عن الإيمان بوحدانية الله, "أهو إله واحد أم لا". [19]

إن سؤال القرافي لم يكن للاستعلام ,أو لتوضيح ما هو غامض لديه, ولكنه في الحقيقة يسعى إلى استدراج الخصم إلى فخ أعد له سلفا: ألا وهو الوقوع في التناقض فإن قالوا: نعم. كفروا بالأمانة والصلوات الثمانية التي يعتقدون فيها بالإيمان بالله الأب, والرب الإله الواحد يسوع المسيح وروح القدس الواحد الحي.[20]

ويقرؤون في صلاة النوم: الملائكة يمجدونك بتهليلات مثلثة أيها الأب؛ لأنك لم تزل، وابنك نظيرك في الابتداء, وروح القدس مساويك في الكرامة, ثالوث واحد، فقد صرحوا بثلاثة أزلية وانسان من بني آدم يسمى يسوع, فهم يقولون أربعة وهم لا يشعرون.

وإن قالو لا، فقد كفروا بالتوراة والإنجيل, أما التوراة: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: أنا إلهك, فلا يكن لك إله غيري ... وفي إنجيل ***متى*** : لا صالح إلا الله الواحد ..." [21]

فلا شك أن القرافي كان قد وضع كل هذه الأسئلة في ذهنه, وتصور إجابتها قبل أن يبدأ المناظرة, ثم إن دهاء القرافي في طريقة صوغ سؤاله، جعلته يرغم الخصم على مساعدته في بناء منهجه الاحتجاجي، حينما يكتفي بالإجابة على الأسئلة الموجهة إليه.

فهمزة الاستفهام التي استهل بها سؤاله والأداة "أم" التي ختم بها, فيها إيهاما للخصم بالأمان، وتعزيزا لثقته بنفسه إذ يشعر وكأن السائل يريد الاستفسار عن جزئيات يجهلها .

وبذلك يمكن الإقرار مع "حسين الصديق" بأن "استخدام الاستفهام هنا ليس إلا شكلا ذكيا لتفكيك منهج التفكير عند الخصم, وإيقاعه في التناقض، مما يؤدي

إلى هزيمته في المناظرة, فهذا الشكل من الاحتجاج لا يرمي إلى الدفاع عن قضية يتبناها السائل بقدر ما يهدف الى إظهار خطأ تلك الفكرة التي يتبناها المسؤول..."[22].

إن تتبعنا للأسئلة التي اعتمدتها مناظرات القرافي قادتنا إلى الإقرار بأن لها طبيعة ثابتة غالبا، يمكن نعتها بالاستفهامات المحصورة التي توصف بأنها "ما حصرت فيه على المجيب أن يجيب إلا ببعض السؤال"..[23].كقول القرافي: آدم عليه السلام تاب وأناب أم لا؟".[24] فقد حصر عليه أن يجيب إلا بأحدهما.

إن الأسئلة المحصورة التي تعكسها النماذج المتوفرة في المدونة بكثرة, تعود إلى أنها أنسب مجالا لتقييد البحث في موضوع المناظرة, ثم إن توظيف هذا النوع من الأسئلة يوحي إلى عدم إقبال المتناظرين إليها بذهن خال, بل لا بد أن تجمعها معرفة مشتركة, أو هما بصدد البحث عن معنى مشترك..[25]

وفي أثناء تطورات المناظرة تظهر خصائص أخرى مميزة للسؤال، منها خاصية سؤال التبرير، و يمكن التدليل عليها بالأمثلة التالية:

- "قال متى: الله تعالى جواد فجاد بأعظم الموجودات وهو كلمته, فجعله متحدا بأفضل المحسوسات, وهو الانسان"[26]، فأجابه القرافي ببطلان هذا الاعتقاد لوجوه منها قوله: " سلمنا أنه ممكن, لكن لم قلتم أن الكلام هو أفضل الموجودات؟، ولم لا يكون العلم أفضل منه ؟؛ لأن الكلام تابع للعلم.[27]

ويرد اعتماد هذا النوع من الأسئلة في المناظرة إلى طبيعتها الحجاجية, لارتباطه بالتبرير الذي يتطلب حجة يبنى عليها الموقف, فالقرافي هنا يورد أسئلة تبريرية متتابعة لا تستدعي الحكم فقط, بل تقتضي توضيح الأسس التي

قادت إليه, فسؤال القرافي التبريري هنا جاء ليسائل به متى, ويقيس به الحدود الإقناعية للموقف المتبنى من طرفه.

فضلا عن أن هذا النوع من الأسئلة فيه إشارة إلى أن قضايا المناظرة تبقى دائما مثيرة للشك والريبة في آراء الخصم الفكرية.

2/1 – أشكال السؤال ومقصدياته :

ترمي صيغة السؤال في الأصل خاصة في الخطاب الحجاجي إلى استعلام السائل عن أمر يجهله, لكنها غالبا تأخذ أبعادا مغايرة تعكس الطاقة الحجاجية للنصوص, وبالنظر إلى الأسئلة المطروحة في المدونة يمكننا تصنيفها إلى : تقريرية، واستنكارية، إذ تسعى الأسئلة التقريرية إلى تقرير استنتاج قام به السائل بعرضه على الجمهور تمهيدا لنقده, وهذا الاستنتاج يتخذ صيغة سؤال غير مباشر يقوم على الشك والافتراض.[28]

يطرح القرافي سؤالا يهدف من خلاله تقرير فرضية, فهو يورد السؤال بعد أن يقدم له بتمهيد توضيحي ييسر له استنتاجا يقرره في سؤال: " ثم إن قضية عيسى عليه السلام في أنه ولد من غير أب كانت في غاية الشهرة عند بني إسرائيل حتى آذوا مريم عليها السلام إيذاء كبيرا برميها بالزنى, ووصلت القضية إلى أقطار الأرض، فكيف يخفى على عيسى عليه السلام ذلك ثلاثين سنة؟.."[29], لقد حاول القرافي من خلال هذا السؤال إرغام الخصم على الاعتراف بآرائه, خصوصا بعد أن غدت هذه الأخيرة واضحة المعالم وسهلة التبني, وعليه فسؤال التقرير غرضه الاستنتاج لا الاستفسار, وفي هذا السياق يذهب عبد اللطيف عادل متحدثا "إن سؤال التقرير وإن تظاهر بالاستفسار فانه لا يطلب الخبر, بل يبحث في إقراره على المخاطب / الخصم ليضعه أمام تبعاته.."[30]

أما سلسلة الأسئلة الاستنكارية فلها اشتغال كثيف في مناظرات القرافي, إذ يهدف من خلالها إلى زعزعة ثقة الخصم بنفسه، وإحراجه عن طريق تتابع أسئلته ويمكن التدليل على حضوره من خلال المثال التالي:

"إدعاء "متى" أن المسيح صلب معه لصان عن يمينه، وعن شماله، كانا يهزءان به ويعيرانه, وقال لوقا: إنما هزأ به أحدهما فقط...، فكذب قول متى وأغفل هذه القضية مرقس ويوحنا، ومن المحال أن يحدث مثل هذا، ولا يشيع في ذلك الزمان, فإن كان صحيحا فلم تركاه, أو كذبا فلم اختلقه الآخر؟.."[31]

إن توظيف أداه الاستفهام "لم" في هذا الإطار توحي بضرب من التعسف والعنف، الذي بدا جليا مع التقدم في المناظرة, إذ يشدد القرافي لهجته تجاه خصمه، ويمطره بوابل من الأسئلة –أوردنا نموذجا منها فقط للإيضاح–

إن إحاطة الفكرة بالشك, وإثارة التساؤلات حولها يفاجئ الخصم، ويشل قدرته على الإجابة.."[32] لأن القرافي هنا سعى إلى نفي الفكرة التي تضمنها سؤاله, ومضى قدما إلى إدانة خصمه بسبب اعتقاده في أسلوب خال من الليونة.

وفي مرة أخرى يقول القرافي: "قال يوحنا: إن أول آية أظهرها المسيح عليه السلام تحويل الماء خمرا, ولم يذكرها الثلاثة, واذ أغفلوا مثل هذا كانوا متهاونين بالدين وإن كانت لم تصح عندهم, فكيف ينقل الدين عن شخص واحد؟ وهو يوحنا وشرط ثبوت أصل الأديان التواتر.."[33]

إن هدف القرافي من وضعه هذه الصيغة هو أن يكون الحكم صادرا عن الجمهور وليس عنه, إذ نجده يعرض الحقائق، ويترك الحكم للجمهور بعد أن أوحى له بطبيعة الحكم, هذا الأخير لم يقل به القرافي وإنما هو اتهام منه وضعه في صيغة سؤال لإحراج الخصم.

ولكي يقنع القرافي الجمهور بنجاحه في إدانة خصمه, فإنه لا يمنح فرصة لهذا الأخير، بل يبادر في إصدار حكمه" قال يوحنا:إن المسيح عليه السلام غسل أقدام تلاميذه ومسحها بمنديل كان في وسطه, وأمرهم أن يقتدوا به في التواضع ولم يذكر ذلك الثلاثة الأخر، فإن كان كذبا دخل الخلل, وإن كان صدقا فلما أغفلوا؟! فدخل الخلل".[34] فالقرافي لم يخاطب الخصم بالذات, وإنما أطلق حكما عاما على كل من يعتقده, ولو اتهم القرافي خصمه مباشرة باحتمال وجود خلل في اعتقاده لما كان له ذلك الأثر الذي أحدثه الحكم العام.

وأثناء البحث في مناظرات القرافي تجلت لنا صور أخرى من الأسئلة التي تضمنت آليات إقناعية، توخت تصيد الخصم دون أن يشعر وإيقاعه في وضعية حرجة، يصعب عليه تجاوزها، وبالتالي تسجيل نقطة ضده.

ويمكن التدليل على توظيف القرافي لهذا النوع من الأسئلة بالمناظرة التالية:

"ثم إن قولكم : إن يحيى عليه السلام عمد المسيح عليه السلام، فهل كان عيسى عليه السلام قبل ذلك مقدسا أم لا؟ فإن قالوا : مقدسا. فلا أثر لتعمده وإن قالوا : لا. فكيف يعتقدون أن من ليس بمقدس إله؟ أو ابن إله؟ وأنتم تقولون : إن أرواح القدس مثل الحمامة البيضاء, وهل هذا كله إلا هذيان, وضرب من الخذلان؟ وهذا على أظهر أحكام شريعتهم، وأقواها مستندا، فكيف بأضعفها؟"[35]

وظف القرافي من خلال هذا الجزء من المناظرة استراتيجية حجاجية، توخى من خلالها إرباك خصمه، فاستخدم متوالية الأسئلة التي جهز لها إجابات متوقعة كانت بمثابة الطعم الذي يجر الخصم إلى الانسجام مع موقفه، وإذ يسعى حسب ***حسين الصديق*** إلى إحراج الخصم وضعضعة تفكيره واضطراره إلى السكوت؛ لأنه لا يستطيع الكلام في مجال لا يعرفه...[36]، ومن مظاهر التشغيل الحجاجي للسؤال في مناظرات القرافي، توظيفه لما

يسمى بالسؤال الارتجاعي "الجوابي"...[37] ،مهمته امتصاص الهجوم, وتغيير وجهة الحجاج, ويمكن التمثيل له من خلال هذا المقطع الذي تم انتقاؤه من المناظرة "ففي إنجيل لوقا أن جبريل عليه السلام بشر مريم رضي الله عنها بأن ولدها المسيح ابن داود، يجلسه الرب تعالى على كرسي أبيه داود... والنصارى تقول : كلا بل هو رب داود..." فيجيب القرافي" كيف يليق بجبريل صلوات الله عليه أن يخمد قدر المسيح, ويقلل قدره وينسبه إلى البشر, وهو منسوب إلى خالق البشر؟ لا سيما وذلك في معرض التبشير وهو محل التفخيم والتعظيم؟..[38]

استخدم القرافي أسلوبا ذكيا للهروب من الوقوع في فخ على السؤال المطروح, فالإجابة بواسطة السؤال الارتجاعي، تضع شرعية السؤال الأول جانبا, ويصبح كلا المتناظرين مطالبين بالتبرير, وغير خاف أن القرافي هنا استعان بسرعة بديهيته، واستخدم الهجوم وسيلة للدفاع، ما مكنه من تحقيق الفعالية الإقناعية للسؤال الجوابي .

وإجمالا وبعد تتبعنا لنماذج عديدة من مناظرات الأشعري , وقفنا على ملاحظة مهمة مفادها أنه لم يبادر في طرح الأسئلة, بل خصومه, وإنما حضر المجلس ليناظر فقط، ويرد على تحدي الخصوم, ولعله هنا يعكس صورة الأشعري الذي يدافع عن معتقداته إذا ما تعرضت للهجوم.

أتاحت لنا هذه الدراسة الكشف عن نماذج هامة من الآليات التي توفر للمناظرة خاصيتها الإقناعية، تجلت حسب ما خلص إليه البحث في طريقة البناء الحواري الذي يوزع أدوار الكلام و أفعاله، كما انتهى إلى أن توسيع الحوار فيها يتم عبر التناقض، أما الإغلاق فقد يكون إفحاما أو إلزاما.

ويتجلى الإقناع في هذا الجنس كذلك من خلال التشغيل الحجاجي للاستفهام الذي يتجاوز براءته وحياده، ليصبح أداة لإيقاع الطرف الآخر.

وتغدو هذه النتائج مزدوجة تخص بلاغة الإقناع من جهة، و المناظرة من جهة أخرى، وهذا ما يوحي إلي التداخل العميق، والاتصال الوثيق بين المبحثين.

الهوامش:

1- بول ريكور: البلاغة والشعرية والهيرمينوطيقا، ترجمة: مصطفى النحال، مجلة فكر ونقد، السنة الثانية، العدد16، فبراير1999،ص:109

2- محمد العمري: دائرة الحوار ومزالق العنف، افريقيا الشرق:2002، ص: 09

3- المدونة المعتمد عليها: شهاب الدين القرافي: الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة، دار ابن الجوزي ــ القاهرة، ط:1، 2006، ص: 76-77.

4- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة: منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط:1، 2013، ص:189.

5- المدونة: ص:38.

6- المدونة: ص: 81.

7- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص: 193.

8- المدونة: ص :120.

9- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق ، ص:195.

10- المدونة: ص :111

11- طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 4، 2010 ص: 77-78.

12- المدونة: ص: 92.

13- المدونة: ص: 96

14- المدونة: ص:44

15- المدونة: ص:41

16- المدونة: ص:100

17- اسحاق بن وهب: البرهان في وجوه البيان، تقديم وتحقيق الدكتور حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، 1969، ص:94

18- حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مكتبة لبنان، ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط:1، 2000، ص:255

19- المدونة: ص:115، ص:181

20- المدونة: ص: 119

21- المدونة: ص: 119ـــ120

22- حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مرجع سابق ، ص: 257

23- اسحاق بن وهب: البرهان في وجوه البيان، مرجع سابق ، ص: 94

24- المدونة: ص: 121

25- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق ، ص: 213

26- المدونة: ص:57

27- المدونة: ص:57

28- حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص: 259

29- المدونة: ص: 36

30- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق ، ص:217

31- المدونة: ص:36

32- حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مرجع سابق ،ص:261

33- المدونة: ص:35

34- المدونة: ص:35

35- المدونة: ص:175

36- حسين الصديق: المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص262

37- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع سابق، ص: 291

38- المدونة: ص: 160.